محاضرات السداسي الثاني

المحور الرابع : تاريخ وحضارة المدن الفينيقية

المحاضرة رقم 15 :

مدخل الى التاريخ والحضارة الفينيقية

توطئة : اشتهرت دول المدن الفينيقية في العالم القديم بكونها أمة بحرية واجهت باكراً السيطرة الكريتية في تجارة شرق المتوسط ، وزاد تفوقها البحري مع التراجع اليوناني المبكر بسبب هجمات الغزو الدوري ، و الذي فتح الباب لسيطرة فينيقية على معابر و موانئ و تجارة العالم القديم ، هذا و برغم تعدد دول المدن الفينيقية التي ظهرت و ازدهرت على الساحل السوري و برغم عدم إمكانية إقامة دولة فينيقية قُطرية تضم أراضي الفينيقيين و تُخضعهم لسلطة سياسية واحدة ، إلاّ أنّ ما كان يجمع هذه المدن من وحدة جنسية و سيرورة أحداث تاريخية مشتركة، و مقومات حضارية (اللغة و الكتابة و الديانة و العقلية البحرية التجارية) متطابقة ما يدفع نحو التاريخ المشترك و الحضارة الواحدة .

I. **جغرافية الساحل السوري–اللبناني**: يمكن تحديد الامتداد الفينيقي على سواحل سوريا القديمة في المناطق المحاذية لسواحل شرق المتوسط، وهي المنطقة الممتدة من الشمال الى الجنوب من لواء الإسكندرونة وصولاً الى غزّة، مع تركز دول المدن الفينيقية في المناطق الشمالية في المسافة الممتدة على طول 300 كم، وتحد فينيقيا شرقا جبال لبنان الغربية التي تفصلها عن السهول والصحراء السورية أما شمالاً فجاورتها دولة الحثيين، والى الجنوب فتمتد أراضي فلسطين.

و لعلّ أهمّ ما ميّز الساحل الفينيقي جغرافياً هو شدة الانحدار لجبال لبنان الغربية (ليبانوس) المتوجهة نحو البحر، إضافة الى الطابع الصخري المنتشر ،و ضيق الساحل مما أعاق إقامة التجمعات الحضرية أو الممارسة الزراعية بالقدر الكافي مثل ما هو الحال في حضارات الشرق الأدنى المجاورة ، كما أعاق الاتصال المباشر بين ساكنة الساحل السوري و الأمم القاطنة في سوريا القديمة [1]،و هو الأمر الذي يُفسر لنا لاحقاً التوجه المتميز لدول المدن الفينيقية نحو النشاط التجاري كنشاط بديل عن الزراعة ، و التوجه صوب بناء المراكز التجارية و المستوطنات تعويضاً لغياب المجال الحيوي في ظل ما شهدته مناطقهم من تنامي ديموغرافي و اضطرابات سياسية و غزو خارجي متكرر من الأمم المجاورة .

وتشكلت أراضي الفينيقيين Phoenicians من شريط ساحلي ضيق موازي للبحر قليل التعاريج خالي من مناطق صالحة لأن تكون موانئ طبيعية، ولعلّ جبال لبنان الغربية و علاقتها مع البحر هي التي أدت الى شدة الضيق في

[1] ـ ميخائيل إبراهيم نجبب، مصر والشرق الأدنى القديم ، دار المعارف ، بيروت ، 1966 ، ص 48 .

السهول الساحلية [2]و بخاصة في المنطقة الوسطى من فينيقيا عند "بيروت" و" الناقورة "، بينما نلمس بداية الاتساع لهذه السواحل في المناطق الشمالية عند "البترون" ، و في المنطقة الجنوبية جنوب مدينة "صيدا " حتى الحدود مع فلسطين ، بينما تغيب السهول الساحلية في مناطق عديدة و تظهر في شكل رؤوس صخرية منحدرة ملامسة للبحر.

وعن النظام النهري في فينيقيا فقد تشكلت بالمنطقة عدة أنهار كان لها دور كبير في الزراعة المحلية و الحياة اليومية ، منها ما كان يمر مجراه فقط في منطقة الدراسة و مثاله النهر الجنوبي الكبير"Elieutherus و نهر "العاصي" Orontes، بينما نجد بعضها تشكّل كاملاً (منبع و مجرى و مصب) في فينيقيا (لبنان القديم)، و من ذلك نهر الليطاني [3]، و قد تدخلت الجبال المتعددة الاتجاه في خصاص النظام النهري بالمنطقة فإلى جانب أنها شكلت لنفسها وديانا عميقة سريعة الجريان فقد كانت كذلك قصيرة ، تمتلأ مجاريها في الشتاء و الربيع و تتحول الى أودية ضعيفة و ضحلة صيفاً .

و بالحديث عن مناخ الساحل السوري فهو شبيه بمناخ البحر المتوسط، فالشتاء دافئ قصير ممطر، والصيف حار طويل وجاف، و في ذلك تبلغ درجة الحرارة في الصيف 29°م في المنطقة الساحلية للبلاد، بينما تنخفض في الشتاء إلى 13°م فقط، أما المناطق الجبلية فحرارتها أكثر انخفاضاً في أشهر الشتاء، بحيث تسقط الأمطار شتاءً بين أكتوبر و ماي، وتختلف كمية المطر الساقطة على الساحل السوري وتشكل السفوح الغربية لجبال لبنان الغربية (فينيقيا) أغزر أجزاء المنطقة مطرًا بسبب ارتفاعها وتصل فيها كمية التساقط الى 1,500 ملم في السنة وتزداد بشكل كبير على السواحل.[4]

و عن أهمية الساحل السوري في العالم القديم نكتفي بما ذكره المؤلف "فيليب حتي" في كتابه "تاريخ لبنان" إذ يقول : "" ***طبيعة أرضه الجبلية ، و قربه من البحر ، و موقعه في مركز متوسط في البلدان التي كانت مهد الحضارة . بلاد ما بين النهرين و مصر القديمة . و موقعه عند مفترق الطرق العالمية ،و كونه جزءا من الطريق الدولية التي كانت تربط بين قارات ثلاث ، هذه و غيرها كانت عوامل ذات أثر بعيد المدى في تكوين دوره التاريخي .. فقد كان البحر المتوسط أول طريق بحري مرت عليه بضائع الشعوب المتحضرة لتتوزع على بلدان شواطئه بضائع مادية و بضائع ثقافية ..*** " [5]

II. **مصادر دراسة تاريخ و حضارة المدن الفينيقية** : تاريخ المدن الفينيقية هو تاريخ مُتعارف على محطاته الكبرى فقط فيما تلى الألف الأول قبل الميلاد . من خلال ارتباطه بأحداث

[2] ـ حلمي محروس إسماعيل ، الشرق العربي القديم و حضارته ، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1977 ، ص 149 .
[3] - Conteneau (G), La Civilisation Phénicienne, Ed ; Payot, Paris, 1926, p30 .

[4] ـ محمد بيومي مهران ، المدن الفينيقية ، تاريخ لبنان القديم ، د:ط ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1994 ص ص 27-28.بتصرف ـ
[5] ـ فيليب حتي . تاريخ لبنان ، تر : أنيس فريحة ، دار الثقافة للنشر ، بيروت ، 1985 ،ص5 .

أمم الشرق الأدنى القديم و بلاد اليونان . أمّا ما قبل ذلك ، فإن المؤرخين لا يملكون تغطية كاملة و تفصيلية لمجريات الأمور في تلك المراحل بمثل ما يعرفونه عن حضارات الشرق كالمصرية القديمة و حضارة بلاد الرافدين ، و لعلّ ذلك راجع الى المصادر المتوفرة ، إذ يعتمد المؤرخون على أربعة أنواع يمكن استعراضها كالآتي :

1 . **المخلفات الأثرية** : قبل القرن 17 الميلادي ، كانت المعلومات المتوفرة عن الفينيقيين تقتصر على ما ورد في الكتاب المقدس و كتابات اليونان ، غير أن فك الخط الهيروغليفي مكّن من انطلاق البعثات الأثرية الغربية نحو الشرق ونشطت حركة البعثات العلمية ، واختصاراً تُعد **مراسلات تل العمارنة** التي تعود لعهد الأسرة 18 الفرعونية مصدراً للتعرف على أحوال فينيقيا في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ، كما أمدتنا "**نصوص رأس شمرا** " العائدة لبداية القرن 14 ق.م بمعلومات عن عقائد الفينيقيين الدينية ، يضاف إليها مخلفات أشورية تحدثت عن علاقة الفينيقيين بالغزو الأشوري ، ثم مخلفات أثرية فينيقية محلية بدأ الكشف عنها منذ القرن الثامن عشر على يد الرواد الأثريين الفرنسيين أمثال "رينان " و "بيير مونتيه" وكذلك "حمدي بك" في كل من "صيدا" و "جبيل" [6]و التي دلّت على مختلف التفصيلات الحضارية.

2 . الكتابات الكلاسيكية: و يقصد بها كما أسلفنا . في المحورين السابقين . كتابات الرحالة و الجغرافيين والمؤرخين اليونان و الرومان الذين زاروا المنطقة أو سمعوا عنها أو تواتروا معلومات شائعة عن الفينيقيين و بلادهم ، و بدأ ذلك منذ القرن السادس قبل الميلاد حين كتب هؤلاء بغاية استعراض معلومات عن الشرق الأدنى القديم ، و تضمنت كتبهم أو أجزاء من كتبهم إشارات الى الفينيقيين ، و في هذه الجزئية ينظر الباحثون في هذا المجال الى كتابات الكلاسيكيين بشيء من الريبة ، لما في كتاباتهم من دوافع تستدعي الحذر ، و من ذلك أن كثيرا منهم لم يزورا المنطقة و انما اعتمدوا على ما تم تناقله بالمشافهة أو السماع، إضافة الى توظيفهم أسلوب الكتابة بالعقلية التي تتناغم مع مصالح أوطانهم الإغريقية أو الرومانية ، او أنهم . اقتناعا برُقي حضارتهم قد ركزوا على مظاهر الغرابة في الحضارات الشرقية عموما ، ثم أنّ الكتابات الكلاسيكية قد عاصرت . للأسف . دور الضعف و التراجع لدى الفينيقيين ، و لم يطلعوا على واقع الحال في الألف الثاني و بداية الألف الأول .

و في هذا الصدد أشار هيرودوت (أنظر التعريف به في ما سبق) الى الفينيقيين و روى حولهم الرواية التي ترجع بأصلهم الى منطقة الخليج العربي، و يروي على لسانهم "" ***أنهم من أريتيريا*** . يقصد بها منطقة الخليج . ***و منها وصلوا الى بلاد العرب الصخرية*** . شمال الحجاز . ***ومنها دخلوا إقليم النقب ليأخذوا طريقهم بمحاذاة الساحل*** ""، كما يروي أن هذه الهجرة انطلقت في حوالي القرن 28 ق .م نقلا عن علماء من صور. ودعماً ذلك أشار

[6] ـ محمد أبو المحاسن عصفور ، المدن الفينيقية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، د:ط ، 1981 ،ص 19.

"سترابون " في جغرافيته الى مدى التشابه بين مقابر الفينيقيين و مقابر أهالي البحرين في الخليج العربي، و تحدث "بلين الكبير" في كتابه الضخم "التاريخ الطبيعي " عن إنتاج الخمر في "صيدا"، ومن ذلك ما رواه "بلوتارك الخيروني " في قصة " ايزيس و أوزيريس" على أن الصندوق الذي يحمل جثمان القتيل "أوزيريس " قد أرسله البحر الأخضر العظيم (البحر المتوسط) الى شاطئ "جُبيل".

3 . **المصادر المعاصرة لهم:** وتشمل المعلومات الواردة في المخلفات الأثرية التي وجدت في المناطق التي عاصرت دول المدن الفينيقية وبخاصة في منطقة الشرق الأدنى القديم ، و تبدأ الإشارات الى دول المدن الفينيقية منذ عند الدولة الحديثة في مصر القديمة ، و من ذلك ما ورد ضمن مراسلات " تل العمارنة " (أخيتاتون")العائدة الى فترة حكم "أمنحوتب الثالث " و "أخناتون " منتصف الألف الثاني قبل الميلاد .

و توضح هذه المراسلات مجريات الأحداث بين مصر و أمم الشرق كالأشوريين و الكاشيين و الفينيقيين، إضافة الى ما ورد في النصوص المكتشفة في "رأس شمرا" (أوغاريت) و تعود الى منصف القرن 14 ق.م. و يدخل ضمن المصادر المعاصرة ما ورد في المخلفات الأثرية الأشورية ، ومن ذلك الحوليات البارزة للملوك الاشوريين الذين سيروا حملات موسمية على فينيقيا و رصدوا كثيرا من المعلومات التي تساعد في استكمال حلقات هذا التاريخ .

4 . **الكتابات المقدسة:** ومنها التوراة Torahو هي الأسفار الخمسة الأولى التي تنسب الى سيدنا الى سيدنا موسى . عليه السلام . و برغم من يقيننا بالتحريف الذي مسّ نصوص التوراة و العهد القديم، الاّ ان ما ورد فيها من قصص محكية في جو مُفعم بمشاعر العدوان تمّ ترسيمها بين القرنين الخامس و الرابع قبل الميلاد، و قد ضم الكثير من التناقضات مع ما تضمنته التنقيبات الأثرية المتوالية، غير أنّه يمكن اعتبارها مصدر تاريخي كغيرها من الكتابات القديمة السابقة.

أما الكتابات المسيحية فيغلبُ عليها الطابع الكنسي الديني الذي يؤرخ لانتشار المسيحية في سوريا و لبنان القديمين، و كان التأريخ لها مرتبطاً بالمجاميع الكنسية و تاريخ القديسين ، و يعتبر المؤرخ الكنسي "يوسبيوس " صاحب كتاب "التاريخ الكنسي" و "إميانوس " في كتاب "التواريخ " و "بروكوبيوس " من أهم من كتب ضمن هذا النسق من الكتابات ، التي أشارت كثيرا الى "فينيقيا" في معرض الحديث عن سوريا القديمة و علاقتها بالدولة الرومانية .